بين الأدب وعلم النفس *

استعراض سيكولوجي لإحدى روايات شكسبير

شاعر الإنجليز العظيم

بقلم المربية الكبيرة السيدة نظلة الحكيم سعيد

لقد اخترت أن أدرس العلاقة بين أدب القوم وعقلية أفراده عن طريق نوع خاص من الأدب ، هو الأدب المسرحي ، وانتخبت لهذا الغرض رواية من روايات شكسبير ، أريد اتخاذ وقائعها أساساً لتحليل العواطف والانفعالات البشرية ، وهذه هي الرواية المسماة « قصة الشتاء » ، وهي رواية تدل على انتصار المؤلف للمرأة ، مع بيان النزعات القومية التي سادت في زمانه أ[illegible] الناس ، ونحن طبعاً نحكم على الأديب الحقيق : بأنه الذي يخرج الأفكار في ثوب يتلاءم مع روح العصر ، ويتمشى مع قوانين الأخلاق والعرف السائد .

معنى كلمة أدب

والآن نريد أن نفحص معنى كلمة الأدب ... إذا بحثنا في معنى هذه الكلمة حسب استعمالها نجد أنها قد استعملت استعمالا خاطئاً للدلالة على كل ما كتب في اللغة ، بصرف النظر عن الجانب الفني ؛ أي أنها في الشرق — وبخاصة في العالم العربي — تطلق مع التساهل على الجانب اللغوي الخاص بالمديح ، والرثاء ، والهجو ، والأوصاف ، وسرد تواريخ حياة الشخصيات البارزة ، مع الإشارة إلى بعض النظريات الفلسفية التي تجمع بين الوصف والنقد والتعليق على تصرفات البشر وظروف الحياة ، وقد أدى هذا إلى وضع كثير من الحكم ، والأقوال المأثورة ؛ وإذا نظرنا إلى استعمال كلمة أدب في العالم العربي نجد أنها تشمل الأدب المدون « المكتوب » ، والأدب المحفوظ في صدر صاحبه ورواته بالسماع ، ولذلك لم تتناول دراسة الأدب شيئاً سوى بحث أسلوب الكاتب ؛ ونقده ، وتقدير مبلغ انتفاعه بمحصول اللغة في التعابير الشعرية أو النثرية ، ومقدار بلاغته في الأوصاف الخلابة ؛ وحسن ذوقه في الدخول في الموضوع أو الخروج منه ؛ ولقد أدى هذا إلى العناية بفحص كل ما تجود به القرائح ، من حيث حسن الابتداء « براعة الاستهلال » ، وحسن الانتهاء « براعة المقطع » ، وهذا بالضرورة جعل المسابقة بين المؤلفين المعتمدين على الذاكرة والكتاب ، مقصورة على التفنن في مجرد اختيار الألفاظ [illegible] التعبير .

* محاضرة ألقيت في [illegible] ... السيدة [illegible] « المرأة » بنشرها .

وهذه النزعة بدورها جعلت دراسة الأدب عندنا مقصورة على الجانب اللغوى الذى يشمل بحث الأسلوب ونقده ومدى تمشيه مع القواعد الأساسية التى سمعت عن العرب ، ومن ثم كان الأدب العربى متبوئاً عرش الأدب فى العالم كله، من حيث جزالة اللفظ ، وانسجام العبارة، وحسن التآلف بين أجزاء العبارة الواحدة ، وقد بلغ من تمكنهم بصياغة اللغة وحسن الذوق فى اختيار اللفظ ، أنهم كانوا يهدمون القصيدة العصماء بكلمة واحدة نافرة فى مطلعها ، ولا ننسى غضب المأمون على شاعر مبدع هنأه، لأنه بدأ قصيدته بالنفى حيث قال:

لا تقل بشرى ولكن بشريان غرة العيد ويوم المهرجان

أما الغرب فكان يطلق كلمة أدب على أحسن تعبير يضعه أى فرد كتابة لأحسن أفكاره ، سواء أكانت هذه الأفكار فى العلم ، أم الأدب ، أم الفن ؛ فالجادة الكتابة فى أى علم تعتبر ثروة أدبية للأمة وتراثاً خالداً يدل على مقدار رقيها وتطورها من عصر لآخر، فما كتبه أينشتين مثلا فى الرياضة يعتبر أدباً لأمته، وما كتبه نيوتن، وآدمز سمث، ولابلاس، وداروين، وفرنوف، فى العلوم الطبيعية والطبية يعتبر أدباً للأمة، بل أدبا للانسانية على الاطلاق، وعليه فان هذه النزعة ـ نزعة اعتبار جميع العلوم أدبا للامة أرشدت الفكر الغربى إلى طرق باب علم جديد أساسه المنطق الصحيح المتمشى مع الحقائق الواقعية. وذلك هو علم تنظيم الدراسة العلمية Methodology

ولقد كان من جراء هذا التقدم والتطور فى النظر إلى العلوم على اختلاف أنواعها أن تنبهت الأفكار إلى أنه يمكن دراسة الانسان من ناحيتين: ناحية الجسم ، وناحية العقل، فنشأ علم النفس أو علم الحياة العقلية ضمن العلوم الحديثة، التى تتقدم الآن بسرعة مدهشة، حتى لقد أصبحنا ندرس حياة الانسان العقلية فى ضوء نتائج التجارب العملية والاحصائيات الاقتصادية الدقيقة من مجرد الملاحظات البسيطة التى قام بها الأقدمون ؛ فهم حقيقة طرقوا باب علم الحياة العقلية، وبحثوا فيما سموه الروح ، والنفس ، والعقل ، ولكن بناء على مشاهدات بسيطة ؛ فمن ملاحظاتهم مثلا: أنه عند توقف القلب يصبح القلب بلا قيمة ـ ظنوا أن القلب هو مركز الروح ومصدر الحياة ـ ، ومن ملاحظاتهم ، أنه عند إتلاف أى جزء فى الرأس ، أو المخ ، تتعطل بعض أعضاء الجسم عن أداء وظيفتها ، وقد يفقد الانسان القدرة على التفكير الصحيح، مع وجود الجسم حياً ينمو ويتغذى .

انتقلوا إلى اعتبار المخ مركز الروح ، ولكن كل هذه كانت نظريات اجتهادية تحتاج إلى التصحيح العلمى، والبحث الدقيق المؤسس ـ من جهة ـ على ملاحظة تصرف الانسان ومقدار تأثره بعوامل بيئته ، ومن جهة أخرى، على مقدار ما يكشفه العلم من أسرار الطبيعة البشرية، وما يعرضه الأديب المطبوع من حقائق يلبسها ثوب الخيال، لتكون للناس تذكرة وعبرة ؛ ومن ثم كان

على حياته ليتخلصا منه ويخلو لهما الجو، وتجسم هذا الوهم حتى انقلب إلى نزعة جامحة ورغبة ملحة، في البطش بصديقه بولكسين؛ ولما تملكه الأمر، أفضى به لصفيه (كامليو) وعهد إليه بقتل بولكسين، أو بموت هو - وإذن فرأس بولكسين أو رأس كامليو - وكم كان يود لو يقتل هرمين كذلك في نفس اللحظة، لولا خوفه من غضب البلاط وثورة الشعب؛ لأنها كانت محببة إلى الجميع، فهو يكتفي مؤقتاً بزجها في غيابة السجن حتى يستشير الآلهة في أمرها.

وعلى هذا أتم الملك تدبيره مع نابمه كامليو واطمأن اليه؛ ولكن كامليو يرى في الأمر ظلماً شنيعاً، وهدراً لدماء الأبرياء من غير جريرة، وهو كذلك يخشى بطش الملك - خصوصاً وقد فشلت كل مساعيه لاقناع الملك بأنهما بريئان - وهو لا يستطيع عصيان الملك جهاراً؛ فيختار أخف الضررين، ويفضي إلى بولكسين بما يدبره له الملك من سوء، ويعرض عليه طريق الخلاص بذهابهما إلى مملكة بوهيميا، تاركين وراءهما ليئتيس يأكل الحقد قلبه؛ وهرمين تقتلها الحسرة في السجن.

ويطول الحال، ويدرك هرمين المخاض في السجن، فتلد بنتاً تسميها بردينا «المفقودة الضائعة»؛ وهنا نجد بولينا - وصيفة الملكة وخادمتها الأمينة - فرصة سانحة، فتأخذ الطفلة وتقدمها إلى الملك، وهي تشرق في ملابسها وفي الشيء الكثير من حلي والدتها، وينبعث منها نور الطهر والوداعة.

ولكنه جماد لا يلين، وصخر لا يرق، فتتركها بين يديه، عساه ينوب إلى رشده، ويشفق بابنته الضعيفة. وإذا به تتملكه ثورة الغضب. فينكر نسبها إليه، ويأمر انتاجوناس - زوج الوصيفة بولينا - أن يأخذ البنت وما عليها من حلي إلى البرية، ويتركها هناك بين الأدغال؛ وتشاء الأقدار أن تفترس الوحوش المسكين، ولا تمس الطفلة بسوء، فيعثر عليها أحد الرعاة، فيتبناها ويحسن تربيتها بفضل ما وجده معها من حلي ومال، واحتفظ بقطعة الورق التي احتاطت بولينا فوضعتها بين طيات ثيابها، مبينة فيها اسم الطفلة ونسبها؛ لأنها قدرت ما قد تخبئه الأقدار للطفلة، وقد صحت ظنونها.

وتكبر (بردينا) رعرة نضرة يتضوع أريجها في ذلك الكوخ الحقير، ويشرق نورها منه، وتشفق الأقدار بها مرة أخرى، فتسوق أمير بوهيميا - ابن الملك بولكسين - في طريقها، فيستولي حبها على قلبه ويأسر لبه حتى ينسى نفسه وشعبه، ويختلف إلى ابنة الراعي من آن لآخر، ويقضي معها الساعات الطوال يستمتع فيها بلذة الهوى البريء، ويفتقده أبوه الملك من آن لآخر فلا يجده؛ فينكر ذات ليلة، ويقتفي هو وكاميل - صديقنا القديم - أثره إلى كوخ الراعي، وهناك يجده على وشك الزواج من بردينا، فيعنفه على فعلته هذه، ويأمره بالعدول. ولنتركه الآن

يذوب أسى، ويتذلل إلى كامليو عساه يجد له مخرجاً، وتعود إلى ذلك البائس المسكين ليتيس، فقد هجره أصدقاؤه ، وقضى ولى عهده حزناً على أمه هرمين؛ وكذلك سافت هرمين يوم أن حاكمها أمام الشعب علناً بتهمة الخيانة، قبل أن تصل الرسل من العرافين معلنة براءتها هى وسائر من اتهمهم معها بالباطل .

بيت الاعتراف

يتوب بعدئذ ليتيس إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويرسل فى طلب كامليو ليسرى عنه كربته، فيجيبه إلى طلبه، ويعود إلى بلده ، وإلى زوجه بولينا صحبة الأمير والفتاة ، وتكون بينهما مقابلة حارة ينفطر لها قلب الملك فتشفق به بولينا ، فتذهب به إلى بيتها لتريه تمثالا لزوجه الميتة ، صنعته خصيصاً لتخليد ذكراها ؛ ولكنها تشترط عليه ألا يمس التمثال بيده ، فيقبل ، ويرى التمثال فيبكى وينوح ويتوجع للذكريات المؤلمة الماضية ، ويقترب من التمثال، وإذا بالتمثال يمشى نحوه فى رفق ولين ، فينسى عهده، وتخونه شجاعته ، ويحتضنه ، وإذا بالملكة حية بين يديه؛ ويكون ثمة مشهد مؤثر يحتضن فيه الأميرة برديتا أيضاً، ويبوح الراعى بالسر؛ ويعلم الجميع أن برديتا هى ابنة الملك ، وتختم المأساة بالسعادة والهناء ، بعد الحزن والألم الطويل .

* * *

هذا هو موجز قصة الشتاء لشكسبير ، ويجمل بى أن أتعمق فى درس موضوع الرواية، وأغوص فى أعماق شخصيتها : فأبدأ بتحليل بسيط للعواطف الإنسانية عامة ، وعاطفة الكراهية ـ كما وصفها شكسبير ـ على وجه الخصوص ؛ وسنرى بعدئذ كيف اتفق رأى شكسبير، ورأى علماء النفس المحدثين .

عند ظهور عاطفة معينة عند أحد الناس يتأثر صاحب العاطفة بعاملين :

أولهما: يتأثر بمن تنصب عليه العاطفة ، ومبلغ صلته بالذات صاحبة العاطفة ، وأثره فيها من ناحية توفر المنفعة ، وتوقع الضرر .

ثانيهما: يتأثر بالظروف التى تساعد على ظهور العاطفة وتقويتها فى شكل قوى ؛ أو ضعيف كيفما تكون الحال ؟

[للبحث بقية] نظلة الحكيم سعيد